

الغني والفقير

صورة كل منهما،
والصراع بينهما في
أدب جبران

سماج ادريس

الآخرين. أما جبران، فقد دَخَلَ إلى مدرسة كوينسي الشعبية المَجانِيَّة، ودرَسَ إلى جانب زملائه من الفقراء الإيرلنديين واليهود والصينيين والأميركيين. وفي خلال سنوات ثلاث، أَدخَرَت العائلة شيئاً من المال أوفدت به جبران إلى بيروت ليدرَسَ العربيَّةَ والفرنسيَّةَ، فكانَ أكثرَ أفرادِ العائلة حظاً!

وكان جبران يقضي العُطْلَ الصَّيفِيَّةَ في بشري. وفي إحدى المرَّات تعرَّفَ على حلا الضَّاهر، أخت حاكم المنطقة، وأحبَّها. فوقف أخو حلا بين أخته و«ابن ملتزم ضريبة الماعز»، وصار لقاء العاشقين في غابةٍ حول دير مار سركيس. اتَّسَعَت الطبيعةُ لتحضُنَ المحرومين الصغيرين. لكنَّ رفض الأغنياء لجبران ولحبه الجريح تركَ في قلبه تصميماً على الإثراء. قالَ لِحَلا في لقاءٍ حارٍّ^(٢): «أظنُّكَ تؤثرين حياة القَصْرِ على حياة الكوخ، ولَسَوْفَ أبني لك قصراً ههنا بعد أن أعود من أميركا». فاجابته بِبَسَاطةٍ: «كُلُّ كوخٍ يُصْبِحُ قصراً متى عشنا فيه معاً!» كان جبران آنذاك في السادِسةِ عشرة من عمره.

وتكون لجبران عودة أخرى إلى لبنان سنة ١٩٠٢، ولكن كدليل وترجمانٍ لعائلةٍ أميركيَّة. إلاَّ أنَّه لا يلبث أن يطيرَ إلى بوسطن إثر وفاة أخته سلطانة بالسَّلِّ، وتلاحقُ المصائب عليه سنة ١٩٠٣ بِوفاةِ بطرس وأمه. وماذا كان ميراث جبران من أخيه بطرس؟ دُكَّانٌ رازحٌ تحت ٢٤ ألف دولار من الديون، وبضاعة بنصف هذه القيمة^(٣). لهذا السبب، قرَّرت جوزيفين بريستون بيبودي عَدَمَ الزَّواجِ من «النَّبِيِّ الفقير» رَغَمَ حُبِّها لهُ، مؤثِّرةً عليه مهندساً مثقفاً ميسوراً!

حتى صديقه (داي) الذي كان يعين جبران مادياً، فوجيء باحتراقٍ محترقٍ الذي كان يضمُّ - فيما يضمُّ - بعضَ رسوم جبران.

لا يزعم هذا البحث تقديمَ نظريَّةٍ جديدةٍ أو رؤيةٍ ثانية لجبران من منطلقٍ مادِّي. لكنَّه - أي البحث - يحاول تسليطَ الأضواء على العوالمِ التاريخيَّةِ والطبقيَّةِ التي بلورت صورة الغني والفقير عند جبران، بل - قُلْ - صُوَّرَهُمَا المتنقِّلة. كما أنَّ البحثَ التالي لا يدَّعي «سُفاهاً» للنقِّد الذي تناول جبران على أساسِ فكريِّ عرفاني، بيدَ أنَّه يسعى إلى تلمُّسِ الأسبابِ الماديَّةِ التي استندَ إليها فكر جبران العرفاني الصُّوفي.

ولد جبران سنة ١٨٨٣ في قرية بشري من والد التزم ضريبة الماعز في تلك القرية والمنطقة المجاورة لها. لكنَّ ملتزم ضريبة الماعز هذا سرعان ما أوقفَ بتهمته اختلاس، ففرضت عليه إقامة جبريَّة في مركز قريب من المحكمة، واحتجزت أملكه... فسافرت «كاملة» أم جبران سنة ١٨٩٤ إلى باريس للاستنجاذ بنسبٍ لها كان على علاقةٍ بالسلطات الفرنسيَّة، أملةً بوساطة لِفَكِّ الحجز عن الأملاك. فتمكنت من استعادة بعض العقارات، لكنَّ تكاليفَ المحاكمة تَجَاوَزَت قيمتها! فرُهنت، وبقي لعائلة جبران القليل من المال.

وكان نَفَرٌ غير قليل من مواطني بشري قد وَجَدَ أنوار المغامرة والكسب تشعُّ بَرَّاقَةً من هناك، من أميركا. فسافر الكثير منهم واستطاع بعضهم تأسيس مستقبل اجتماعي زاهر... وقد جَدَّبَ هذا الإشعاع كاملة، فقرَّرت الهجرة مع أولادها الأربعة سنة ١٨٩٤ إلى أميركا مُختارةً «بوسطن»، المكان الأكثر تركزاً واستقطاباً لمغتربي بشري.

في تلك المدينة «حيث تتعانقُ نراجيلُ التنبك والأفيون، وتتراكبُ طاولات النرد على الأرصفة القَدِرة»^(١)، حطَّت عائلة جبران رحالها في شقَّة صغيرة منخفضة السقف مؤلفة من عُرفة ومطبخٍ وعلية. ومنذ ذلك اليوم، حملت كاملة «الكشَّة» تبيع أدوات للزينة وخطافها، وبدأت مريانا وسلطانة العمل في خِدْمَةِ

(٢) عن حلا الضَّاهر، نقله جميل جبر في المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣) مذكرات ماري هاسكل، ٢٢ نيسان سنة ١٩١١.

(١) جبر، جميل. جبران في حياته العاصفة - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٨١ (ص ٢٢).

وتشاء الصدفة أن يتعرف كاتبنا اللبناني على صديقة ستجمعها الأيام في رابطة رقيقة طويلة. هذه الصديقة هي ماري هاسكل. لم تبخل ماري هاسكل بمد يد العون المعنوية والمادية له، بل دفعت له مئة دولار ثمن لوحين، ووعدته بمنحه ٧٥ دولاراً شهرياً على مدى سنتين... بل بلغ بها الأمر أن أرسلته على نفقتها إلى باريس لدراسة الرسم، فمكث هناك ثلاث سنوات.

عاد إلى بوسطن، ثم انتقل إلى نيويورك فسكن في محترف «ضيق يغم على القلب» على حد تعبير ماري هاسكل، لا يتسع لأكثر من زائرتين، استخدمه غرفة نوم وغرفة استقبال وغرفة طعام ومطبخاً في آن معاً! كان هذا عام ١٩١٢. بعدها بستين، أتم جبران كتابه «دمعة وابتسامة».

لنطليق على الفترة الزمنية الممتدة بين عامي ١٨٨٣ و ١٩١٤ اسم «المرحلة الأولى»، ولنحاول أن نستجلي في أدب جبران خلال هذه المرحلة صورة الغني والفقير، موقفه حيال كل منهما، وصورة الصراع بينهما.

□ أدب المرحلة الأولى:

ويتبدى «دمعة وابتسامة» (بدأت بالظهور منذ سنة ١٩٠٤ وانتهت سنة ١٩١٤)، ومن ثم ظهرت على التوالي «عرائس المروج» ف «الأرواح المتمردة»، ف «الأجنحة المتكسرة».

● «دمعة وابتسامة»:

في «مدينة الأموات» مقارنة بين جنازة غني قوي وجنازة فقير ضعيف. الأولى تجمع بين الفخامة والعظمة، ومحاطة بالشعراء الرثين والموسيقيين النافخين الأبواق، يصل الموكب إلى القبر وإذا بالجدث نفسه من الرخام المهندس. أما جنازة الفقير فعبارة عن امرأة ترتدي أطماراً بالية، وطفل رضيع تحمله، وكلب أمين حزين يجري إلى جانبها حتى يصل «موكب» الفقير إلى الجذث، فإذا هوحضرة في زاوية... عندها يخاطب المؤلف نفسه قائلاً: ما دامت مدينة الأحياء ومدينة الأموات للأغنياء الأقوياء، فأين موطن الفقير يارب؟ «وينظر نحو الغيوم المتلبدة المتلوثة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة، ويسمع صوتاً في داخله يقول: هناك»^(١).

وهناك يعني الأبدية أو المطلق. وهذه الفكرة تتردد في مقطوعة أخرى بعنوان «منيتان»^(٢). الموت إزاء غني قوي، والموت إزاء فقير ضعيف. الأول يستفيق مدعوراً عندما يلامس الموت جبينه ويصرخ: «أغرب عني ولا تُرني أظافرك الجارحة وشعرك المسدول كالأفاعي...»، ولكنه لا يلبث أن يحاول رشوة الموت

(١) المجموعة العربية، ص ٢٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٠٧.

تارة بالفضة والذهب وطوراً بجوار له حسان، تارة بأرواح عبيده وطوراً تبلغ به أنانيته حد أن يفندي ابنه به!! إلا أن الموت لا يأبه له، وحينئذ «وَضَعِ الموتُ يَدَهُ على فم عبد الحياة الترابية وأخذ حقيقته، وأعطاه للهواء».

ثم يبلغ الموت بيت الفقير. ولما يراه هذا، يجثو على ركبتيه ويرفع ذراعيه نحوه ويناجيه: «هأنذا أيها الموت الجميل، اقتبل نفسي يا حقيقة أحلامي وموضوع آمالي! ضمني يا حبيب نفسي فانت رحوم. لا تتركي ههنا. أنت رسول الآلهة، أنت يمين الحق. فلا تتخل عني. كم طلبتكم! ولم أجذك! وكم ناديتكم ولم تسمع! قد سمعتي الآن فلا تقابل شغفي بالصدود. عانق نفسي يا حبيبي الموت!... فيأخذ الموت حقيقة الفقير بلطف ويضعها تحت جناحيه، ويطيّر هامساً في الهواء: «لن يرجع إلى الأبدية إلا من جاء من الأبدية!»^(١).

في المقطوعتين المذكورتين، نجد الفقراء يسمون عن الأغنياء من ناحية متيافيزيقية! أي أن أصل الفقير وطبيعته أسمى من أصل الغني وطبيعته. فالأول روحي الأصل، والثاني ترابي. وعليه، فإن الموت مرحب به عند الفقير لأنه سينقله إلى «هناك»، إلى الأبدية التي منها وُلدَ وإليها يرجع، بخلاف الغني الذي سيعود إلى أصله الترابي، أي إلى ما «دون هنا».

وفكرة خلود الفقير هذه نراها من جديد في مقطوعي «جمال الموت» و«يا خليلي الفقير». في الأولى، صار الموت السعادة القصوى: «لا تندبوني يا بني أُمِّي، بل أنشدوا أغنية الشباب والغبطة... ولتسمعوا «صدي نعمة الأبدية متسارعة مع أنفاسي (...). ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات، بل أغمضوا عيونكم وتروني بينكم الآن، وغداً، وبعد غد!»^(٢). وفي الثانية، يخاطب جبران أحياء الضعفاء «شهداء الشرائع الإنسانية» ويعزيهم لأنه «من وراء المادة، من وراء الغيوم، من وراء الأثر، من وراء كل شيء، قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة... أنتم مثل أزهار نبتت في الظل. سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم إلى نور الشمس، فتحيون هُنَاك حياة جميلة...»^(٣). حتى الطفل الفقير غير الغني: «فالثاني حالما يشب سيتحكّم بقراب العباد، أما الفقير فإنه سيتترك «عالم الأرواح والملائكة والفضاء الواسع» ليحيا حياة الشقاء والمذلة»^(٤).

(١) المجموعة العربية، ص ٣٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

(٣) المجموعة العربية، ص ٢٨١.

(٤) «طفلان»، المجموعة العربية، ص ٢٨٥.

بعد «الموقف الميتافيزيقي» الذي اتخذه جبران من كل «من الفقير والغني، نعثر في مجموعة «دمعة وابتسامة» على موقفين آخرين. ففي مقطوعة «الأمس واليوم»^(١)، يتحسّر غني على أيام ما قبل الاغتناء: «كُنْتُ بِالْأَمْسِ أَرْعَى الْغَنَمِ بَيْنَ تَلْكَ الرَّوَابِي الْمَخْضِرَّةِ، وَأَفْرَحُ بِالْحَيَاةِ، وَأَنْفَخُ فِي شَبَابِي مَعْلَنًا غَبْطِي، وَهَا أَنَا الْيَوْمَ أَسِيرُ الْمَطَامِعِ، يَقودُنِي الْمَالُ إِلَى الْمَالِ، وَالْمَالُ إِلَى الْإِنْهْمَاكِ، وَالْإِنْهْمَاكِ إِلَى الشَّقَاءِ. كُنْتُ كَالْعَفْصُورِ مُغْرَدًا وَكَالْفَرَّاشِ مَتَقَلًّا، وَهَا أَنَا سَجِينٌ عَادَاتِ الْاجْتِمَاعِ: أَتَصْنَعُ بِمِلايْسِي وَعَلَى مَانْدَتِي وَبِكُلِّ أَعْمَالِي مِنْ أَجْلِ إِرْضَاءِ الْبَشَرِ وَشِرَائِعِهِمْ...

«أين السهول الواسعة؟ أين الهواء النقي؟ أين مجد الطبيعة؟ أين ألوهيتي؟! فقد ضيقت كل ذلك ولم يبق لي غير ذهب أحبه فيستهزئ بي وعبيد أكثرهم فقل سروري، وصرح رفعتة ليهدم غبطتي».

من البديهي أننا إزاء موقف رومنتيقي روسوي. فالغني، يمثل المدينة وما يتبعها من تهاوت على الكسب، ومن قيود على حرية الإنسان... أما حالة الفقر فهي عكس الشقاء لأنها الراحة الروحية، كيف لا والفقير يجتلي بأمه الطبيعة، مصدر كل خير وجمال؟! ولنتابع ما يقوله الغني الحزين:

«كنت وابنة البدو نسير، والعفاف ثالثنا، والحب نديمنا، والقمر رفيقنا. واليوم، أصبحت بين اللواتي يمشن بمدودات الأعناق، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق، البائعات الوصل بالأساور والخواتم».

نحن الآن أمام موقف من نوع جديد، موقف أخلاقي: ففيها تمتاز حياة الفقير بالعبء والإخلاص والحب الرزين، تتسم حياة الغني بالخيلاء والمادية والتعهر!

ويتأفف صاحبنا قائلاً: «بالأمس كنت غنياً بسعادتي، واليوم أصبحت فقيراً بمالي».

إلا أن جبران يترك في النهاية للغني منفذاً واحداً للخلاص وروحه، وهو أن يساوي نفسه بالفقير معنوياً ومادياً:

«في تلك الدقيقة، وقف أمام الغني فقير وممد يده متسولاً فاقترب من المستعطي وقبله قبلة المحبة والمساواة، وملا يده ذهباً، وقال والرافة تسيل من كلماته: خذ يا أخي، الآن، وعدّ غداً مع أترابك واسترجعوا أموالكم»^(٢)... فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بعيد المطر وراح مسرعاً».

سنجد فيما بعد، وخاصة في «النبوي»، أن العطاء والمحبة

سيكونان السبيل الذي يسلكه جبران سعياً وراء المصالحة مع المجتمع، ومع الغني في هذا المجتمع.

وجبران يتخذ موقفاً رابعاً من الغني والفقير، نعثر عليه بين سطور «يا خليلي الفقير» و«صوت الشاعر». في الأولى يؤكد أن الجندي قد أجبرته «شرائع البشر الظالمة على أن يترك رفيقته وصغاره ويذهب إلى ساحة الموت من أجل طمع يدعونه الواجب...». وفي الثانية، يخاطب جبران جندي الأمة المستعمرة طارحاً عليه الأسئلة التالية: «أنت أخي وأنا أجبك، لماذا إذن تخاصمني؟ لماذا تأتي بلادي وتحاول إخضاعني لإرضاء لأئمة يطلبون المسجد بقولك والمسرة بمتاعبك؟ لماذا تترك رفيقتك وصغارك متبعا للموت إلى أرض بعيدة من أجل قواد بيتغون ابتياع المعالي بدمائك والشرف الرفيع بأحران والدتك؟

في المقطوعتين التي تكمل واحدهما الأخرى، نعثر على بداية تفكير علمي واضح، وإن غشته مسحة أدبية إنسانية رقيقة. الغني يستغل قيم المجتمع كالواجب فيزج بجنده دفاعاً عن هدف «مزعوم» بينما الهدف الحقيقي من وراء فعلته هذه الطمع والمنزلة الأفضل... كذلك يفعل الغني الحاكم في الأمم المستعمرة: يبرر الاستعمار بضرورات «قومية» يضلل بها الجندي الفقير... لا ندعي. بالطبع، أن جبران دعا إلى الوحدة «الأممية» بين مستغلي العالم، ولكنه تجاوز على الأقل الحواجز القومية المصطنعة بين «أدوات» الاستعمار (أي الجنود) والمستعمرين.

يبقى أخيراً موقف جبراني شبه ثابت من الفقير هو موقف الشفقة. فاسمع ما تقوله الأرملة في صلاتها:

«أشفق يا رب على الفقراء وأحجمهم من قساوة البرد القارس واستر جسمهم العارية بيدك (...). أرفق يا رب بالجائعين الواقفين أمام الأبواب في هذا الليل المظلم (...). ومد يا رب يدك إلى قلب الغني وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين...»^(١).

أخيراً، بالنسبة لنضال الفقير ضد الغني المستغل، لا نجد هذه الفكرة واضحة في «دمعة وابتسامة» وإن كانت ماثلة في أرجاء الكتاب، بل يغلب موقف الاستسلام وتقبل الهزيمة. وقد يكون السبب في ذلك ما ذهب إليه الدكتور حاوي من أن هذا الكتاب هدف «إلى الوصول إلى استنتاج عام أو إلى مغزى من طريق ملاحظة عامة للحياة، أو لشخصيات عامة فيها، دون أي تحديد لزمان أو مكان»^(٢)، أي دون الاهتمام بتطبيق هذه المبادئ على

(١) المجموعة العربية، الأرملة وابتسامة، ص ٢٧٠.

(٢) خليل حاوي في جبران خ. جبران: إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره - دار العلم للملايين.

(١) المجموعة العربية، ص ٢٦٦.

(٢) هذه الجملة لافتة للنظر... فكان جبران يقول: إنها مال الغني هو للفقير!

أوضاع معينة في عصره وبلده، على نحو ما سيفعل في عرائس المروج، والأرواح المتمردة، والأجنحة المتكسرة.

«عرائس المروج» (١٩٠٦)

ستكون الشخصيات المحببة إلى قلوبنا، في هذه المجموعة، فقيرة؛ وسيكون موقفها الاستسلام كذلك، كما سنرى في مقطوعي مرثا البانية، ويوحنا المجنون.

أول ما يستلفتنا في مقطوعة مرثا البانية أنها جاءت من صميم حياة جبران وفي أشد حالاته عوزاً (سنة ١٨٩٨)^(١)، وثاني ما يستوقفنا هو عودة الموقنين الأخلاقي والرومطيقي في نظرة جبران إلى الفقير، ولكن على شيء من التداخل. يقول جبران: «قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة...» ثم يقول: «... تلك الحياة التي إذا ماتأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع، مثقلة في الصيف، مستغلة في الخريف، مرتاحة في الشتاء، متشبهة بأمناء الطبيعة في كل أدوارها...» ثم يعود إلى موقفه الأخلاقي الأول: «... نحن أكثر من القرويين مالاً، وهم أشرف منا نفوساً...» (نحن عبيد مطامعنا وهم أبناء قناعتهم)^(٢).

الآن ماذا عن مرثا؟ يتيمةٌ وُلدت، في بيت جارٍ فقير يعيش مع رفيقته وصغارها من بذور الأرض وثمارها. غرر بها سيّدٌ عليه ملامح الترف والكياسة. وجاء بها إلى بيت جميل منفرد، ثم أتى «بالملايس الحريئة والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة»، حتى إذا ما «أشبع شهواته من جسدها» تركها لأصدقاء له يتاعون جسدها، وترك لها صبيّاً يرتدي أطماراً باليةً ويبيع الزهور، وراء نظراته المحزنة «قلبٌ صغيرٌ يستر فضلاً من مأساة الفقراء الموجهة».

وهناك، في تلك الأزقة القذرة «حيثُ يجتمهر الهواءُ بأنفاس الموت»، تمددت مرثا البانية على سريرٍ حقير، وهي تحتضر.

نحن إذن نواجه مأساة كـ «بؤساء» هوغو لا يسعنا معها إلا أن نتعاطف مع مرثا وطفلها، وأن نتميز غضباً نحو السيد الثري، اللاخلاقي، اللاإنساني، الشهواني، الشرير. وبالطبع، لا يترك

(١) يذكر يوسف الحويك، صديق جبران في شبابه الأول، أن جبران رأى طفلاً رث الملابس يبيع أزهاراً منه، فاشتري زهرة وقدمها ليوست الحويك، وسأله عن عائليته، فأخبره عن بؤس أمه فمضى يزورها في كوخها الفقير، وأوحت إليه هذه الزيارة قصة «مرثا البانية».

(٢) المجموعة العربية، ص ٥٩.

جبران موقفاً ذهبياً كهذا دون أن يُطل برأسه، فيَعْلَقُ بعد زيارته لمرثا:

«أنت مظلومةٌ يا مرثا، وظالمك ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة... إيه يا مرثا، أنت زهرةٌ مسحوفةٌ تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية. قد داستك تلك النعال بقسوة، لكنها لم تحفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتهنيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة... تعزّي يا مرثا بكونك زهرةٌ مسحوفة، ولست قدماً ساحقة!».

أخيراً، واضحٌ جداً موقف الاستسلام ذلك الذي تقفه مرثا، وعلى كلِّ حال جبران نفسه لا يريدُ منها إلا ذلك: أن تتعزّي بكونها مسحوفةٌ لا ساحقة، وأن تنتظر حكم السماء العادل! أين هذا الموقف من موقف خليل الكافر — كما سنرى بعد قليل — الذي يدعو إلى النضال من أجل «ملكوت الأرض»؟

أما يوحنا، فشأنه «شأن جميع المزارعين الفقراء» لا يتجاوز قوته «الحبز المعجون بعرق الجبين، والثمار المتباعدة بدم القلب». لا يملك «بارةً واحدةً» يفندي بها عجوله التي ارتعت زرع الدير تينا هو يتأمل في معاني الكتاب المقدس. وإذ يرفض رئيس دير الشاع، وهو دير غني، أن يرّد له عجله ما لم يبيع حقله، يقاومه يوحنا بتعاليم المسيح:

«هل يبيع الفقير حقله، منبت رزقه ومورد حياته، ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب؟ أمن العدل أن يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كما يغفر الشاع العظيم ذنوبَ بهائمٍ جائعة؟»

ثم يستطرد يوحنا إلى تبيان التفاوت الطبقي الصارخ في البلدة: «انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها يتلوى المرضى، وفي حبوسها تفتى أيام البائسين، وأمام أبوابها يتضرع المسؤلون، وعلى طرقيها ينأى الغريب. وأنتم ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل، وتتلذذون بشمار الحقول وخمور الكروم».

بعد هذه الموعظة الإنجيلية، يقبض الرهبان على يوحنا ويودعونه سجناً مظلماً ولا يخرج منه حتى تفتديه أمه بقلادة فضية تُلقبها بين أيديهم!!

وفي عيد الفصح، يجتمع الناس فيرى فيهم يوحنا طبقتين: «عظمة» ترتدي القطيفة والأطالس، وتعاسةً تلتفت بالأطمار البالية؛ «فئة قوية غنية تمثل الدين بالتنعيم والتعزيم، وشعباً ضعيفاً محتقراً يفرح سراً بقيامة يسوع...» فيشتعل حماساً ويخطب يسوع طالباً منه أن يُعين «مُختاربه الفقراء» لأن الجالسين باسمه على العروش لن يسمعو صراخهم... وإلا فليرسل الموت «راحة» الفقراء.

عندها يقبض عليه الكهنة ويسلمونه للشرطة فيقتادونه إلى المحاكم، لكنّه يلبثُ صامتاً لأنه تذكر أن يسوع كان سكوتاً أمام مضطهديه.

في هذه المقطوعة، يعمد جبران إلى أسلوب المقابلة بين الغني والفقير، والمقابلة بينها لن تقتصر هذه المرة على الجانب المادي الظاهر (ملابس، أواني، عروش...)، أو الجانب الأخلاقي (حيث نرى الكاهن يقبل قلادة فضيَّة ثمن الإفراج عن يوحنا)، وإنّما يتعدّاهما إلى جانبٍ ديني: فإذا دين الكاهن الغني تنعيم وتعزيم أي قشور، بينما يمثل الفقراء الدين الحقيقي حتى ليسيّمهم جبران على لسان يوحنا «مختاري يسوع» وليلقب يسوع نفسه بـ «الراعي الصالح».

ويوحنا الفقير نفسه كان صورةً أخرى عن يسوع، في إيمانه الصادق، وفي دفاعه عن البائسين، وأخيراً في مواجهته مصيره لأنها يعرفان جيداً أنّ الظالمين مهما فعلوا بهما، فإن آثار الجريمة «تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس» - تماماً كما لم تستطع النعال القاسية أن «تخفي عطر» مرثا البانية!

«الأرواح المتمردة» (١٩٠٨)

سُلاحظ أنّ الأرواح المتمردة - جنباً إلى جنب مع الأجنحة المتكسرة وعرائس المروج - ستكون شديدة اللصوق بالواقع الاجتماعي الاقتصادي اللبناني آنذاك. فهذه المجموعات - وبخاصة تلك التي بين أيدينا الآن أي الأرواح - تهدف إلى الإصلاح، وليس إلى وضع مبادئ أساسية في العقيدة الجبرائية فحسب، وبكلمة أخرى، إنها تهدف إلى تطبيق هذه المبادئ على الواقع السوري، خلافاً لما وجدناه في دمة وابتسامة. ولذا، فإننا سنرى أنّ هذا الواقع سوف يلعب دوراً رئيساً في موقف جبران من بطلينا (الغني والفقير) وصراعهما. فكيف كان الوضع الاقتصادي الاجتماعي في جبل لبنان بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي؟

□ الوضع الاقتصادي - الاجتماعي في جبل لبنان:

تميّز نظام الزراعة والأرض العثماني الذي خضع له المجتمع اللبناني بحقيقة ثابتة: هي أنّ الأرض تعود للدولة. لكنّ هذا لم يسر إلا طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فالحال أنّه، مع الزمن، قامت عائلات قويّة في جبل لبنان بمسؤولية جباية الضريبة للدولة على مساحةٍ معيّنة من الأرض سُميت «مقاطعة». وصار أعضاء هذه العائلات «مقاطعيين» ذوي ألقاب شرفٍ رفيعة (شيخ، أمير...). ومالبت طموحات هؤلاء نحو

الاستقلال بمقاطعاتهم أن قويت، فاشتدت هيمنتهم المباشرة على الفلاحين واستأثروا حتى بالأراضي القليلة التي استغلها هؤلاء بصورة فردية^(١).

وفي الواقع، كان المشايخ والأمرء والإكليروس الماروني يستأثرون باستثمار ثلثي أراضي الجبل بالزراعة، عدا حقهم في استثمار الأرض المشاع. أما الثلث الآخر فيستثمره فلاحون متوسطو الحال، بينما لم تكن أكثرية السكان لتملك أكثر من قوة عملهم، وهم يمضون ثلاثة أرباع وقتهم بانتظار استخدامهم. هذه الطبقة الأكثر فقراً وعدداً كانت تُصدّر الرهبان (كخليل الكافر) والحطّابين والحرفيين. وباختصار، نستطيع أن نلخص العلاقة القائمة بين الفلاحين من جهة والأمرء والمشايخ من جهة ثانية على أساس القاعدة التالية:

من يزرع لا يملك، ومن يملك لا يزرع!^(٢)

ورغم أن الفلاح كان يتحمّل وحده وطيلة السنة مسؤولية إعداد الأرض وفلاحتها، ويقوم مع أفراد عائلته بالعمل الضروري لإنتاج السلعة وتحضيرها للتسويق، كانت حصته من الأرباح لا تتعدى النصف. وحتى حصته هذه كانت تخضع لاقطاعات شتى: ففي حال حصول نقص في قيمة المحصول عما كان مقدراً في الأصل، كان على الفلاح أن يعرض عن ذلك لصاحب الأرض! ثم تأتي شروط أخرى تكبل الفلاح وترهقه: فهو المسؤول عن دفع ضريبة «الميري» عن أرض «المقاطعجي» ومنه كانت تُقتطع أيضاً ٥٪ من قيمة محصلات الضرائب لمصلحة «المقاطعجي» المسؤول عن جمعها بصفة «أجرة جهود استيفاء وجباية». وحتى أجرة محل الناظر كان يدفعها الفلاحون أنفسهم.

وما إن بدأ التغلغل الرأسمالي الأوروبي في لبنان، حتى قوي تجار بيروت ولعبوا دور وسطاء بين المنتجين من جهة (الشيخ والفلاح) والمستوردين من جهة أخرى. إذن، وقع الشيخ والفلاح معاً في علاقةٍ تبعيةٍ جديدة: التبعية لرأس المال الأجنبي الذي يمثله التاجر في المدينة... فاضطرّ الشيخ إلى التحالف مع التاجر والتشبث بأملكه وممارسة مزيدٍ من سياسة تكبيل الفلاح واستنزاف قوة عمله وقهره اجتماعياً. وتؤكد دراسة وردت في مؤلف «سيميليانسكايا» حول «حركات الفلاحين في لبنان» أنّ دخل عائلة فلاحية في نهاية القرن التاسع عشر تعمل ٤ أشهر في السنة كان ١٣٠٠ قرش. وكانت النفقات مع الضرائب تبلغ

(١) راجع مؤلف سيميليانسكايا حول حركات الفلاحين في لبنان.

(٢) المصدر السابق.

١٥٧٥ قرشاً، أي العجز كان ٢٧٥ قرشاً!! وبالعكس، كان دخل الإقطاعي التاجر في المدينة يتخطى المليون قرش!!

انطلاقاً من هذا الوضع الاقتصادي الاجتماعي الذي حكّم جبل لبنان في الفترة الزمنية الممتدة بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يمكننا فهم الصورة التي رسمها جبران للغني والفقير في الأرواح المتمردة... كذلك نفهم لماذا صرخت القبور، ولماذا كفر خليل!

ففي «صراخ القبور» نحن أمام مجلس عدالة عمياء: أمير يحاكم «مجرمين» ثلاثة أحدهم قتل قائد الأمير عندما أتى هذا ليجمع الجزية من حقل رجل فقير. والسبب أن القائد استحسن ابنة الفقير ففرض ضريبة يعرف أنه يعجز عن دفعها (وقد علمنا للتو أن الضريبة «العادية» وبحد ذاتها كانت تقصم ظهر الفلاح) لكي يقتاد الفتاة - بدلاً من الذهب - إلى قصر الأمير. عندها يهّب خطيب الفتاة الشاب وتدور معركة بينهما تنتهي بمقتل القائد.

وأما «المجرم الثاني»^(١) فكهل ضعيف، ثوبه بال، نظراته موجعة تنبعث منها خيالات البؤس والفقير والتعاسة. هو أب لأطفال خمسة يتضورون جوعاً، أكبرهم في الثامنة وأصغرهم رضيع لم يُقَطَّم. خَدَمَ الدير بعرق جبينه وزرع بساتينه مذ كان فتى ولم يحصل من الرهبان إلا على رغيّف تتقاسمه العائلة عند المساء ولا تبقي منه لقمة إلى الصباح». ولما ضُفَّ أبعدوه وطلبوا منه أبناءه عندما يشبّون، فاسترحمهم باسم يسوع فلم يرحمهم، فذهب يطلب عملاً في المدينة فطرد لأن «سكان القصور لا يستخدمون إلا الفتيان الأقوياء»، ثم جلس على حافة الطريق يستعطي فلم يُحَسِّنْ إليه. وفي ليلة صار الأطفال فيها «يتلوون جوعاً على التراب، والرُضيع بينهم يمضُّ نديي أمه ولا يجد لبناً»، خَرَجَ الرَّجُلُ من منزله ليلاً ودخل قبواً من أقبية الدير «حيث يُخزَنُ الرهبان غلّة الحقول وخمر الكروم». وحمل زنببلاً من الدقيق على ظهره فاستيقظ القسس وسلموه للجنّد قائلين: «هولص شرير جاء ليسرق آنية الدير الذهبية!...».

... وهكذا يتحوّل مجرمو العدالة الأميريّة إلى أبطال العدالة الجبرانية! فالمجرم الأول خطيب فتاة معدمة يُدافع عن شرفها، والمجرم الثاني أب اضطره جوع أطفاله لأن يسرق من «خزان الغلّة» في الدير قليلاً من الدقيق... ويتحول بالتالي كل أعداء الفقير إلى مجرمين: من الأمير فالقائد وانتهاءً بالكهّان والكهّان، هؤلاء يبدون لنا في هذه القصة على غاية الشر: يبدون لنا لا إنسانيين، لا يرحمون من خَدَمهم طيلة شبابه، وكذبة

(١) وهو في القصة «المجرم الثالث»، إلا أن المجرم الثاني لا علاقة له واضحة ببحثنا.

يلصقون تهمة سرقة ذهب بالكهل المسكين، بالاختصار: رهبان «يجولون تعاليم الناصري إلى سيوف يقطعون بها أجساد المساكين الضعفاء»^(١).

في الختام، واضح أن الفلاح الفقير هنا هو صورة عن الفلاح الذي تحدّثنا عنه في تحليلنا للبنى الاقتصادية في أواخر القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين.

في «وردة الهاني» يعود الموقف الأخلاقي إلى الواجهة مصطحباً معه الموقف الرومنطقي من الفقير والغني. ففي القصور الفخمة «تسكنُ الخيانة بجانب الرّياء»، وتحت سقوفها المطلية بالذهب المذوّب يقيمُ الكذب بجانب التصنع. وأما البنات التي قد تمثّل لك السعادة والمجد «فقبورٌ مكلسةٌ يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون واحمرار الشفاه، وتنجح في زواياها أنانية الرجل وحيوانيته بلمعانِ الفضة والذهب...» وإذا استمررنا في عد مثالب الغني لأحصينا عدا الخيانة والرياء والتصنع والكذب والمكر والأنانية، المثالب التالية: البخل، الفساد الأخلاقي، الخيانة الزوجية، إحتقار الزوجة كما لو كانت جرة خمر فارغة إلخ... باختصار، لو علم الفقير ما في منازل الأغنياء وقلوبهم لكان هو المبادر إلى الإشفاق عليهم!

ولذا قرّرت وردة أن تحسر صداقة الأغنياء «لتريح نفسها». فحوّلت عينيها نحو النور حيث «الإخلاص والحق والعدل». وسكنت مع فتى أحبته في بيت «خال من الرياش ولكن مملوء من الروح». إنه بيت، يقول المؤلف، حقير لكن «العواطف جعلته هيكلًا للحب والوفاق».

هنا، تعود بنا قصة وردة الهاني إلى ماضي جبران العاطفي الذي حطّمه الفقر والحاجة. فنحن شبه مضطرين لأن نلاحظ أن ما قد نطقت به «وردة» للتو (وما تنبأه المؤلف في تعقيبه على قولها) إنّها هو مُتَزَعٌ من فم حلا الضاهر، رفيقة جبران الأولى، حين قالت له رداً على ما وعدّها به من أنه سيبنى لها قصرًا في غابة حول دير مار سركيس:

«كلُّ كوخٍ يصبح قصرًا متى عشنا فيه معاً».

قبل الانتقال إلى قصة «خليل الكافر» في مجموعة الأرواح، يتبيّن لنا من «صراخ القبور» و«وردة الهاني» ترابط الوضعين المادي الذاتي لجبران، والمادي الاجتماعي الاقتصادي لفقراء جبل لبنان. وهو ما سيّضح أكثر في مقطوعة «خليل الكافر».

تكاد صورة الغني والفقير في هذه المقطوعة أن تكون صورة طبق الأصل عن واقعها إبّان تلك الفترة التي عرضنا لها.

(١) المجموعة العربية، ص ١٠٠.

فالفلاحون «يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدونها ولا يحصلون لقاء أتعابهم إلا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من أظافر الجوع». وكانت الحقول التي يحرثونها والأكواخ التي يسكنونها «ملك الشيخ عباس بالوراثة مثلما ورثوا الفقر والتعاسة عن آبائهم وجدودهم».

وخليل يتيم، مُدَّكَانٌ في السابعة في عمره، أخذه كاهن القرية إلى دير قزحياً واستغله في رعاية البقر، ثم صيره راهباً ودعا «الأخ مبارك». ولكن عاطفة الأخوة من الرهبان براء، إذ يتضح لنا أن الدير ما هو إلا صورة مصغرة عن المجتمع بكل أشكال التفاوت الاجتماعي التي يشهدها: «كانوا يتمتعون باللحوم والمآكل الشهية ويطعموني الخبز اليابس، والبقول المجففة ويتلذذون بالخمور والمشرب الطيبة ويسقوني الماء ممزوجاً بالدموع، ويضطجعون على الأسرة الناعمة، وينوموني على فراشٍ حجري في غرفة مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير».

حتى هذه اللحظة، جبران لم يأت بجديد على صورة يوحنا «المجنون» العالقة في أذهاننا، أو على صورة «المجرم الثالث» في «صُراخ القبور». في الحالات جميعها نرانا نتألم لحال الفقير ونسخط على الغني الظالم.

لكنَّ الواقع المستجد هو عزم خليل على النضال من أجل تحسين وضعه ووضع إخوته الفقراء لأن «من لا يُشاهد ملكوت السموات في هذه الحياة، فلن يراه في الحياة الآتية».

لم تعد «السَاءُ مصدرُ العدل والرحمة» - كما شاهدنا مع مرتا البانية - خليفة إلا لمن يُثبت حقه في ساح الحياة... وعليه يتشجع خليل ويهاجم الرهبان مستغلي خيرات الفقراء والمساكين، سالبِي غلَّة أرضهم، آخذي أموالهم، شاربي عصير كرومهم، آكلي لحوم مواشيهم. فيطرد من الدير في ليلة عاصفة ويكاد أن يلاقي حتفه لولا نجدة راحيل ومريم ابنتها.

وراحيل ومريم كلاهما من الفقراء أيضاً. وراحيل مثل «جميع الأرامل الفقيرات تعيش بالاجتهاد والعمل» مخافة الموت. وهي تعمل في جمع السنابل وغزل الصوف لقاء درهيمات قليلة.

يتفق الشيخ عباس والخوري الياس على طرد خليل من القرية حتى لا يفسد الناس بأفكاره «الملحدة»، وعندما أيقنا أن إمكانية استغلاله في حقل العمل باتت معدومة كلياً! وعندها تبدأ المرحلة الثانية من نضال الفقير ضد مستغليه: مرحلة استنهاض إخوته وتوعيتهم إلى عدو مصالحهم الحقيقي أي الإقطاع بوجهه السياسي والديني.

والواقع أن هذه المرحلة ليست جديدة تماماً على قارىء جبران، فقد حاول يوحنا تحويل طبيعة النضال من نضالٍ فردي

إلى نضالٍ جماعي ففشل رغم تضامن قسمٍ من الشعب معه. فهل يستفيد خليل من «أخطاء» يوحنا، آخذين بعين الاعتبار وضعهما الطبقي المشابه إلى حد بعيد، ونمط تفكيرهما الواحد (التفكير الإنجيلي)، إلى جانب الوضع السياسي الاقتصادي الواحد الذي ثار فيه كلُّ منهما؟ الجواب: سيستفيد دون شك، ولكن ضمن الحدود التي رسمها له جبران لا يتخطاها حتى لا يتخطى مبدأ جبرانياً أصيلاً كما نأ في الجوهر الإنجيلي.

استفاد بالطبع من مقاومة يوحنا السلبية لمضطهديه ورأى ما آل إليه هذا الأخير. لذا بدلاً من أن يلتزم السكوت، بادر خليل منذ اللحظة الأولى لـ «اعتقاله» إلى الثورة والاستنهاض: «أنا أشفق عليكم أيها الرجال لأنكم آله قوينة عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم (...). أنتم عبيد الغباوة (...). كنت بالأمس مثلكم أيها الرجال وغداً تصيرون مثلي». وعلى الرغم من أن هذا الكلام لم يُغيّر في الواقع العملي شيئاً (إذ اعتقل خليل رغم هذا)، فإنه قد دفع بهؤلاء الرجال إلى الشك في مفهوم الشيخ عباس للطاعة والواجب والخير...

وعندما خضع خليل لاستنطاق الشيخ عباس، أجابته، وكان هذا الجواب بداية لتغيير واقع برُمته... لنستمع إلى السؤال، فالجواب، فالخطاب:

سأله الشيخ عباس: «من هم أهلك وذووك وأين مسقط رأسك». فالتفت خليل نحو الفلاحين الناظرين إليه بكروه واشمئزاز: «الفقراء والمساكين المظلومون هم أهلي وعشيرتي. وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي». وبعدها يستطرد لوصف معاناة الفقراء في أسلوب مؤثر رائع:

«في أي ساعة من النهار لا تتأوه أرواحكم متوجعة؟ أفي الصباح عندما تَمَرَّقُ محبَّة البقاء نقاب الكرى عن أجفانكم وتقودكم كالعبيد إلى الحقول؟ أم في الظهيرة عندما تتمنون الجلوس في ظل الأشجار لكي تتقوا سهام الشمس المحرقة ولا تستطيعون؟ أم في المساء عندما تعودون جائعين إلى أكواخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر؟ أم في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الأسرة الحجرية فتنامون قلقين، ولا يكحلُّ النعاسُ أجفانكم إلا وتهبُّون متوهمين صوت الشيخ يرنُّ في آذانكم؟

أيمكن أن نجد وصفاً لمعاناة الفقير أبلغ أثراً في النفوس من هذا الوصف حيث تبرز هذه المعاناة في بعدها الإنساني الأشمل صراعاً بين غريزة القاء من جهة، والغرائز الإنسانية الباقية كلها من جهة أخرى!؟

بعدها يلجأ خليل إلى أسلوب التحريض: «هل ميِّزَ الله الشيخ عباس وجعله سيِّداً إذ كان في رَحْمِ أمه؟ أم غضب

وثانياً، نعتُّها باللاواقعية لأن فلاحاً واحداً من الثائرين على الشيخ عباس لم نَرَهُ يستخدم العنف ضده، بل الكلُّ آمن بنهج خليل الإنجيلي في التعاطي مع القاتل المستغل. وثالثاً، لأننا نجد حمية الشرف والكرامة والإحساس بالمسؤولية تدبُّ فجأة في نفس الشيخ عباس، فيجلس «مرتعداً أمام ذنوبه» بدل أن يجسد «المقاطعيين» والشيوخ والأمراء لمواجهة حالته المتأزمة. ورابعاً، لأن الواقع يشير إلى استحالة تأسيس حكم شعبي ذاتي دائم في وجود السلطان الأكبر، وكأنَّ قريةً واحدة تقدر أن تثور وتنتصر «وتصير جزيرة» من النعيم في محيط الامبراطورية التركية المضطرب^(١).

«الأجنحة المتكسرة» (١٩٠٨ - ١٩١٢)

وهي القصة الأخيرة في أدب المرحلة الأولى. وتروي قصة حب جبران الأول، كما يقول، لسلمي كرامة ابنة فارس كرامة. وفارس كرامة هذا غنيٌّ ولكنّه - بخلاف «القاعدة» الجبرانية - حنونٌ وعادلٌ وعلى شيء كبير من الانفتاح إذ يبدو أنه يبارك حبهما بالرغم من أن جبران «من أب فقير» كما يذكر في القصة. فارس كرامة، يقول جبران، هو «الرجل الوحيد في بيروت الذي جعلته الثروة فاضلاً».

لكنَّ الثروة تسبب الشقاء لأيِّ كان حتى لو كان على صفات فارس كرامة السامية، ذلك لأنه يجهل «سبل الاحتيال التي تنقذه من مكر الناس وخبثهم»؛ وستضع ثروته الطائلة ابنته سلمى «على شفير هاوية مظلمة مخيفة!» فقد طلب المطران بولس غالب يد سلمى لابن أخيه منصور. وقد وُصف هذا بأنه كان «خشناً، وطمّاعاً، ومنحطاً». وما كان لفارس كرامة أن يرفض طلب زعيم ديني. فضايق المجتمع بالعاشقين واتسعت الغابة لتحصنهما في السر، حتى موت سلمى.

من البيّن عودة جبران إلى واقع الاستسلام لشرائع الغنيّ الجائر على حساب عواطف القلب، بخلاف ما عرفناه مع وردة الهاني. كما أن المسبيين الذاتيين والاجتماعيين يعودان إلى التداخل: سلمى كرامة وجه آخر لحلا الضاهر؛ منصور غالب يقف في وجه حب جبران كأخي حلا؛ الإقطاع الديني يفتك بالحب الرقيق، الخ... وعلى الجملة، فأدب المرحلة الأولى «شديد التناغم» مع وضع جبران الذاتي ووضع جبل لبنان الاقتصادي. فالشخصيات مثلاً لم تكن بعيدة عن جبران ألبيته، بل هو يرى نفسه في كلِّ منها، أو يرى في إحداها وجه أمه «كاملة» وهي تحمل «الكثبة»، وفي الأخرى وجه أخيه بطرس المريض والمُثقل بالديون...

(١) خليل حاوي، المصدر السابق ص ١٥١ - ١٥٢.

عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً؟ (...). الكاهن هو خائن يعطيه المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكةً يصطاد بها أموالهم (...). هولصٌ ينتزع الدرهم من الأرملة والفلس من اليتيم... خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضعوا الدينار في كفه فيغفر لكم ويتسم بمحبة!».

ويتجمع الناس حول خليل وينصرونه... وفجأة «تجري عملية» «تجميع» مفاجئة لموقف خليل، ومن وراء الفقراء. كيف لا، وقد حانت ساعة الثأر. كيف سيوفق جبران بين «كفره» الثوري و«مسيحيته» المتسامحة؟

«سغادرك منفرداً ولا نُدينك» يقول خليل للشيخ عباس، «ونهملك ولا نشكوك، ونبتعد عنك طالبين من السماء أن تفعل مشيئتها بك!!!».

ومن ثمَّ يطالب الفقراء أن يتركوا الشيخ عباس أمام «محكمة ضميره» (?) أمام عرش الله الذي يُشرق شمسَه على الأبرار والأشرار!.. وهكذا بعد أن يُنادي خليل «الحرية» بأن «تنزل كالصاعقة، وتهدم كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجماجم المصفحة بذهب الجزية...»، يترك الفلاحون روح الشيخ عباس «مرتعدة أمام ذنوبه، متعذبة بين أنياب هواجسه».

وفي النهاية، سنجد مجتمعاً جديداً كالذي سيدعو إليه جبران في «النبي»: مجتمعاً يعمل أفرادُه «بفرح ومحبة»: فالشيخ عباس لم يعد هناك ليغتصب الغلة بل صار كلُّ فلاحٍ في تلك القرية «يستغلُّ بالفَرَح الحقل الذي زرعه بالأنعاب»... وصارت للأرض ملكاً لمن يفلحها «بعد أن كانت «ملكاً لمن لا يزرعها».

الملاحظة الأولى التي سنبديها حول المجموعة تتعلق بصورة الفقير، والثانية تتعلق بما آل إليه نضاله.

الفقير هنا مصوّرٌ أولاً كمنتج يحرث الأرض ويفلحها، يجمع السنابل ويغزل الصوف ويشيد الكنائس والقصور، وثانياً كمستغل «بيني القصور والصروح ولا يسكن غير الأكواخ والكهوف، ويرفع بعزم ساعديه أعمدة الهياكل والمعابد لمجد آلهة الأغنياء؛ وثالثاً ككائن «مسيحي» يحقق العدالة الاجتماعية بدون إراقة دماء.

أما على صعيد نضاله، فقد توصل إلى أهدافه بصورة نجرؤ أن ننتعها باللاواقعية: أولاً لأن التضامن مع خليل جاء شاملاً: فهل تعذر وجود فلاح واحد فقط خاف سلطة الشيخ عباس أو ابتغى رضاه؟ أو قل، هل تعذر، وجود فلاح واحد فقط يتمسك بتقاليد الموروثه التي طبع عليها فيرد على خليل؟ في الواقع تبدو صورة النضال في (يوحنا المجنون) بالرغم من عدم نجاحه أكثر واقعية حيث وجدنا الشعب ينقسم حول يوحنا تبعاً للمستوى الفكري الذي وصله كلُّ فردٍ فيه...

والأمكنة تَمَاهت: بيت مرتا البانية يرى فيه جبران بيتهم الحقيير في الحى الصيبي، ودير الشاع فيه ملامح دير قزحيا الثري.

قبل أن نتقل إلى أدب المرحلة الثانية فالثالثة، نسأل أنفسنا السؤال التالي وهو سؤال ليس مُنبِت الصَّلَة ببحثنا: بَعْد كل هذه النكسات التي تعرَّض لها جبران، ألن يحلم - بينه وبين نفسه على الأقل - أن يكون غنياً؟ لقد أوحى لي هذا السؤال ما قرأته في «هذا الرجل من لبنان» ليونغ، وما رواه (كلود براغدون) صديق جبران الحميم من أن جبران وُلِدَ ولادة سعيدة وأن «قومه لم يكونوا أثرياء ومتقنين فحسب (!!!؟) بل كانت عائلة أمه أيضاً أمهر الموسيقيين في الرِّيف كُلِّه منذ زمن بعيد!». أعتقد أننا لسنا أمام محاولة جبران «تعديل ماضيه وزخرفته»^(١) فحسب، بل أمام إنسانٍ قد عقَّده الفقر! كيف لا وقد حرَّمه هذا الفقر من حبه الأول حلا الضاهر، ومن حبه الثاني جوزيفين بريستون بيودي^(٢). من هنا، قد يجروء أحدنا على القول إن جبران كان يطمح في سيره أن يكون غنياً حتى يحقق بعضاً من أهدافه. فلو كان غنياً، هل كان ليقف عاجزاً أمام المطران غالب؟ وهل كان أخو حلا ليرفضه لو لم يكن «ابن مُلتزم ضريبة الماعز»؟

□ أدب المرحلة الثانية:

تنتهي المرحلة الأولى برواية الأجنحة المتكسرة لتبدأ المرحلة الثانية بالعواصف (١٩١٨) موعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. ولعل لهذا الأمر معناه ومغزاه: فلبنان آنذاك قاسى الأمرين نتيجة الاضطهاد والمجاعة والأمراض، ولا بد أن يترك هذا أثره في نفس جبران. ولذا فإن نبرة الحدّة تبرز في العواصف على نحو لم نجد له مثيلاً من قبل في كتابات جبران؛ صرنا نرى معول الهدم يعمل في أجسام الجميع (باستثناء الشعراء والمفكرين) وفي منازل الجميع: في منازل المثريين «حيث التصنع والكذب والرياء»، وفي بيوت الفقراء حيث «الخوف والجهل والجبانة والجهالة». ويصرخ جبران: «إني أكرهكم يا بني أُمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة!». لم يعد المجتمع إلا حديقة حيوانٍ كبيرة مليئةً بالوحوش الكاسرة، ومن يحاول إصلاحه سيموت - كما يعبر يوسف الفخري - مقهوراً... حتى رحمة الغني للفقير - تلك التي صلّت من أجل تحقيقها «الأرملة» في (الأرملة وطفلها)، ومرتا البانية في دعمة وإبتسامه - تغدو «نوعاً من حب الذات» ويصير انعطاف القوي على الضعيف - ذلك الانعطاف الذي شاهدناه في

«الأمس واليوم» - «شكلاً من التفوق والافتخار»^(١). هذا ما يقوله يسوع نفسه!

في المجموعة الثانية المجنون، سيتحوّل الموقف الأخلاقي من الشفقة والتعاطف للذئبين وجدناهما في أدب المرحلة الأولى، إلى موقف أخلاقي قوامه القوة والسخرية... السخرية من الجميع على حدٍ سواء.

وبالإجمال، نلاحظ أن أدب المرحلة الثانية (وكذلك الثالثة كما سنرى) قد ابتعد عن الإلمام «بقضية الفقير ونضاله موضوع بحثنا. وكاتب هذا البحث يعزو هذا الابتعاد إلى جملة أسباب ليس تطوّر فكر جبران وتأثره بمفكرين عظام إلا بعضاً منها. صحيح أن النقاد قد اعتادوا تقسيم أدب جبران إلى مراحل ثلاث، لكنهم لم يكونوا يعيروا اهتماماً إلا لدرجة تطوّر فكر جبران بما هو (أي التطور) نتيجة التجربة الخارجية والجوانية، ونتيجة تأثره بـ «بلايك» ونييتشه، وابن سينا وابن الفارض، والغزالي، و... والحق أن تطوّر فكر جبران يعود، فضلاً عن هذه الأسباب، إلى المسبيين الذاتي والتاريخي اللذين سبق ذكرهما. أمّا العامل التاريخي، فهو اشتداد غربة جبران، وبالتالي بعده عن ساحة جبل لبنان حيث كان الفلاح ما يزال يعاني من سطوة الشيوخ والأمراء والإكليروس ونُضائل ضد هؤلاء جميعهم. وأمّا العامل الذاتي فيتعلّق بتطوّر وضع جبران الاقتصادي نفسه.

(*) ففي ١٤ كانون الأول ١٩١٤، يفتتح جبران خليل جبران معرضه الأول في نيويورك (مونتروس غاليريز، الجادة الخامسة) حيث يعرض خمساً وسبعين صورةً بين لوحات ورسوم. وتجربنا ماري هاسكل أنها جاءت بعد خمسة أيام تفقد نتائج المعرض فتفاجأ بأن مجموع البيع وصل إلى ٦٤٠٠ دولاراً!^(٢) كذلك نعلم أن السيدة ويلسون راغبة في شراء لوحة «الشهوة» بـ ٢٥٠٠ دولاراً!^(٣). ويُعلّق الدكتور جبر: «حقق المعرض نجاحاً معنوياً ومادياً عزز تفاعل جبران بغيره وخلع عن عينيه أحد الحجب السوداء التي كان ينظر من خلالها إلى البشر!».

(**) وفي ٢٩ ك ١٩١٧، بدأ جبران يعدُّ العُدّة لمعرضه الثاني في نيويورك^(٤)، ولما «فرغ من ورشة المعرض واطمأن إلى نتيجته المعنوية والمادية، أكبَّ على (المجنون)^(٥)».

ومن الطبيعي أن يكون لهذا التطور الاقتصادي أثرٌ في توجّه

(١) «مساء العيد»، المجموعة العربية، ص ٤٢٢.

(٢) كتاب الدكتور جبر، ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٧٩.

(١) خليل حاوي في جبران، إظهاره الحضاري وشخصيته، وآثاره، دار العلم

للملايين، بيروت ١٩٨٢، ص ٧٢.

(٢) راجع ما كتبت في هذا الصدد في كتاب جميل جبر، ص ٥٧.

صارت المحبة بين الغني والفقير طريق المجتمع المثالي الرغيد. وفي هذا المجال، من الطريف أن نعلم أن الفصل الأول من كتاب النبّي الذي كُتب سنة ١٩١٨ قد سَمَّ في مزرعة آل غارلند في باي اند. كان جبران هناك على حدّ تعبيره «ضيفاً ملوكياً، في بيت ملوكي، في مكان ملوكي... هنا أستطيع أن أعمل وأركب الخيل وأقود سيارة!..»^(١).

(١) المصدر السابق، ص ١٨٠.

جبران «الروحاني». فإن انفتاح جبران على أدب النزعات الصوفيّة ما كان ليحصل إلا على أرضيّة ماديّة جديدة تتمثل في بداية تكوّن وضع اقتصادي شبه مستقرّ يتيح لجبران التوغل في ذات نفسه.

وبالروحية نفسها، يمكننا أن نُقيّم موضوع بحثنا في «أدب المرحلة الثالثة». ففي النّبّي تتجلى فكرة وحدة الوجود والمصالحة مع الكون كفكرة تعلو فوق كلّ ما سواها من الأفكار «الهدّامة» السابقة. لم تعدّ النعمة ضد الغنيّ المستغلّ تستأثّر بتفكير جبران، كذلك ذوّت صورة الفقير الضعيف المحتاج إلى نصير... .

□ □ □

المراجع

- (١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربية.
- (٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران العربيّة - دار صادر ودار بيروت ١٩٦٤ - بيروت.
- (٣) جميل جبر: جبران في حياته العاصفة - مؤسسة نوفل ١٩٨١ - بيروت.
- (٤) خليل حاوي: جبران خليل جبران، إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره - دار العلم للملايين ١٩٨٢.
- (٥) يوسف الحكيم: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان.
- (٦) يوسف الحويك: ذكرياتي مع جبران (١٩٠٩ - ١٩١٠ باريس) حرّرتها ادفيك شيبوب - دار الأحد / بيروت.
- (٧) لحد خاطر: عهد المتصرّفين في لبنان - الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٦٧ م.
- (٨) سيميليا نسكايا: حركات الفلاحين في لبنان - دار الفارابي ١٩٧٢.
- (٩) الدكتور علي شامي: تطوّر الطبقة العاملة في الرأسمالية اللبنانية المعاصرة، دار الفارابي - ١٩٨١.
- (١٠) أحمد طربين: لبنان منذ عهد المتصرّفية إلى بداية الانتداب.
- (١١) فوزي عطوي: جبران خليل جبران (عبقري من لبنان) الشركة اللبنانية للكتاب - بيروت.
- (١٢) روز غريب: جبران في آثاره الكتابية - بيت الحكمة / بيروت.
- (١٣) وجيه كوثراني: الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٢٠ (معهد الانماء العربي) - بيروت ١٩٧٦.
- (١٤) عبدالعزيز سليمان نوار: وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ - ١٩٢٠) - جامعة بيروت العربية - ١٩٧٤.
- (١٥) بريارة يونغ: هذا الرجل من لبنان (جبران خليل جبران) ترجمة سعيد بابا.